المناورة بالتطبيع والتغطية على إخفاقات حماس

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

لا يزال رفض التطبيع سلاحا سياسيا في يد بعض القيادات العربية، يظهر ويختفي، ويتقدم ويتأخر، حسب الحاجة إليه، رغم أن إسرائيل لم تعد تبالي به مثلما يتصور كثيرون. فقد مضى الوقت الذي كان فيه ظهور قائد إسرائيلي إلى جوار آخر عربي يعدّ مكسبا نوعيا، وانتهى زمن الرغبة في تطوير العلاقات السياسية والثقافية كمغنم أو مغرم مع الدول العربية.

الجمعة الماضي، دعا إسماعيل هنية رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إلى إطلاق مبادرة لمواجهة التطبيع مع إسرائيل، خلال فعاليات "مؤتمر رواد ورائدات بيت المقدس" في دورته الـ11 في إسطنبول تحت شعار "معا ضد الصفقة والتطبيع". لكن هنية لم يتحدث في كلمته المسجلة عن نماذج وخطة واضحة، وتجاهل الإشارة إلى ما يمثّله ذلك من فوائد سياسية لإسرائيل، وتعامل مع الأمر دون اهتمام بالتحولات التي دخلت على هذا الملف وغيره من الملفات الصاخبة.

يفسّر زمان ومكان المؤتمر جانبا من الصورة، التي ظهر عليها هنية، حيث أراد تقديم تركيا كدولة ممانعة، مع أن علاقاتها السياسية والعسكرية وطيدة مع إسرائيل. وقفز على حقيقة ما توفره من دعم ملموس في هذا السياق. ولم يكلّف رئيس حماس نفسه، عرض رؤية تُنهي حالة الخصام بين حركته وغالبية الفصائل الفلسطينية وتُعيد اللحمة الوطنية، وهي أعظم من الحديث عن مقاومة التطبيع، لأنها أفقدت القضية الأمّ في المنطقة غالبية ثوابتها.

اكتفى هنية بترديد عبارات مطاطة حين تطرّق إلى صفقة القرن، التي يكاد يطويها النسيان السياسي داخل الولايات المتحدة وخارجها، غير أنه أصرّ على التذكير بها، ولم يلتفت إلى أن تطبيقها من عدمه يتوقف على مدى الجهد الفلسطيني المبذول لمقاومتها، أو تحسين شروطها. ويعني ذلك أن الأولوية ينبغي أن تبقى لتضييق الهوة بين القوى الفلسطينية كشرط أساسي للصمود والتحدي وخوض مواجهة بقواعد عملية بعيدة عن الأساليب الدعائية.

انتقاد أسطوانة التطبيع ليس دفاعا عنه أو تقليلا من حجمه وخطورته، لكن لأنه بات بلا معنى أو جدوى سياسية. فإسرائيل لا تتمسك به ولا تسعى إليه، وهي تمضي في طريقها، حيث تجاوزت هذه المرحلة وتعقيداتها، وانفتحت أمامها أبواب وساحات عربية وغير عربية دون دفع أثمان باهظة. وفي الوقت الذي تتهرّب فيه من استحقاقات السلام، من الصعب أن تجري وراء تطبيع ما، وتتحمّل تكاليف هي في غنى عنها أصلا. كانت إسرائيل تطالب بالتطبيع حين كانت منبوذة وكانت هناك قضية عربية واحدة في إطار حسابات مترابطة. وعندما انتهى ذلك، لم تعد راغبة فيه.

يبدو أن زعيم حماس يتصور أن هذا النوع من الخطابات السياسية، لم يفتر مفعوله ولا يزال يجذب المشاعر ويخلب القلوب، وتناسى أن هناك هموما عربية وإقليمية تشدّ انتباه الناس أكثر عشرات المرات من ملف التطبيع، الذي تقحمه قوى إسلاموية بمناسبة ودونها للتغطية على استمرار نزيف الإخفاقات، وترفعه من حين لآخر كشعار أو دليل على تمسكها بمركزية القضية الفلسطينية، بينما لفظها البعض، أي أنها ورقة للمتاجرة والمزايدة بها.

يعتقد البعض أن إثارة الغبار حول التطبيع يمكن أن تعيد الاعتبار لمحور المقاومة، الذي سقطت معظم أقنعته السياسية بفعل التناقضات التي خيمت على قواه الرئيسية

يدرك هؤلاء في قرارة أنفسهم أن تمتين الجبهة الداخلية أهم سلاح لمقاومة التطبيع والحد من تغوّل إسرائيل وتماديها في مواصلة الانتهاكات. ولضمان فعاليته من الضروري تبنّي خطوات توقف زحف الخلافات حول قضايا وطنية مفصلية، وتعظيم القواسم المشتركة، والتصدّي لإعلاء المصالح الحركية. لكنهم يتغافلون عن كل ذلك ويصرّون على التمسّك بإثارة ملف التطبيع خوفا من التنازلات المطلوبة في ملفات أخرى أكثر حيوية، وتقود في النهاية للصمود.

تتطلب هذه المسألة صدقا في النوايا والممارسات والأهداف، وبُعدا عن تبنّي تصورات تنطوي على رغبة في الهروب إلى الأمام، أو طرح قضايا ليس لها محلّ في جدول أعمال العديد من القوى العربية، لأن هناك ما هو أشدّ إلحاحا ويستحق التركيز عليه، مثل البحث بجدية عن مصالحة وطنية شاملة كأداة رئيسية في المواجهة المصيرية مع إسرائيل.

تخطّت الشعوب العربية نغمة النفخ في بعض الملفات الميتة، ولم تعد تتقبل أكاذيب أو مراوغات تنسيها متاعبها الحياتية مع قيادات تفتقر لقراءة الواقع والإمعان في عبره ودروسه، ولن تقبل سحبها نحو الإصغاء إلى مشكلات غير مطروقة عمليا، وينحصر الاهتمام بها في نطاق العلاقات الدبلوماسية في بعض المؤتمرات الإقليمية والحوارات الدولية.

عقدت مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل منذ أربعة عقود، ووقّع الأردن اتفاق وادي عربة قبل أكثر من عقدين تزامنا مع توقيع اتفاق أوسلو الذي قضى بتشكيل سلطة وطنية في رام الله وغزة، ولم تتهاون الشعوب العربية وقتها في ملف التطبيع، وتجاهلت نداءات رسمية مختلفة لحثّها على التجاوب معه، على الأقل لحفظ ماء وجه الحكومات المتعاقبة أمام العالم، حتى جاء الوقت الذي لم يعد البعض يلحّ فيه على طلب التطبيع، ولم تعد إسرائيل مكترثة برفع مستواه.

أيقنت الحكومات أن الرفض الشعبي أداة تعزز مواقف سياسية للتعبير عن عدم القبول بكثير من تصرفات إسرائيل في الأراضي المحتلة، وتحسبت إسرائيل من مخاطر التطبيع وانعكاساته، من زاوية ما يفرضه عليها من قيود والتزامات في محكات معينة، وحدوث اختراقات إعلامية تنقل صورة لواقع مؤلم.

لم تنطل الألاعيب المتكررة بورقة التطبيع على الناس، لذلك فتركيز تركيا عليه حاليا ودعوة شخصيات للإدلاء بدلوها في مؤتمر حاشد بالإسلامويين في إسطنبول، يرمي إلى فتح ملف قديم لتوظيفه في هذا التوقيت، بما يخفّف من حدّة الضغوط الواقعة على حركة حماس بشأن تحميلها لجزء كبير من مسؤولية الانقسام الفلسطيني، ويمنح أنقرة أداة لتوجيه انتقادات لدول عربية قيل إنها ترتبط بعلاقات خفية مع إسرائيل.

في الحالتين، يتخطّى الهدف التطبيع بحد ذاته، ليرسو عند تفجيره فجأة لتوجيه اتهامات إلى جهات بعيدة عن حماس، بعضها تناصب تركيا العداء، ناهيك عن المساعي التي تبذلها أنقرة لتوسيع نطاق نشاطها في المنطقة، وإصرارها على القيام بدور في القضية الفلسطينية يفوق إمكانياتها، أملا في إعادة ترتيب أوراقها وفرض هيمنة سياسية غائبة.

يعتقد البعض أن إثارة الغبار حول التطبيع يمكن أن تعيد الاعتبار لمحور المقاومة، الذي سقطت معظم أقنعته السياسية بفعل التناقضات التي خيّمت على قواه الرئيسية. ويخطئ من يحاولون إعادة الحياة إليه، فقد ظهر في زمن سابق وله رجاله وطقوسه ونواميسه الإقليمية، ومحاولة إحيائه الآن لن تجدي.

يضع استدعاء خطاب التطبيع من قبل حماس، وكل من لفّ لفّها من حركات ودول، في مأزق شديد، لأن من يقفون خلفه لهم علاقات مشبوهة، وعليهم أولا وقف المسارات الخفية والمعلنة قبل التصدي لملف يمكن أن تحرق نيرانه أصابعهم.

يحتاج ملف التطبيع وضعه ضمن سلّم أولويات ليس هو أهمها على الإطلاق، لأن القضية الفلسطينية تتعرّض لتهديدات استراتيجية، وهو غير ذي جدوى بالنسبة لإسرائيل. قبل الحديث عن التطبيع، من الواجب الكف عن اللقاءات السرية مع إسرائيل كي يكون الخطاب منسجما مع الفعل ومقنعا للجماهير العربية، بدلا من وضعه كقناع لتخطي فشل هنا وتقاعس هناك.

أنقرة أكثر قربا من موسكو بعد إلغاء عقوبات واشنطن

ذوالفقار دوغان
كاتب تركي

علق المتحدث باسم حزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا على الاتفاقات التي أبرمتها أنقرة مع واشنطن في 17 أكتوبر ومع روسيا في 22 أكتوبر بالقول إن بلاده "انتصرت في الميدان وعلى الطاولة".

لكنّ أيا كان تفسير تلك الاتفاقات، فإنها جعلت الأميركيين والروس معتمدين على تركيا في ما يتعلق بالصراع السوري.

قبل أربع سنوات فقط، وبالتحديد في 24 نوفمبر 2015 حين أسقطت تركيا مقاتلة حربية روسية مثيرة أزمة كبرى بين البلدين، فرضت موسكو عقوبات على صادرات تركيا وعلى السياحة إليها وعلى صناعة المقاولات.

يومها توعد الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بأن تدفع تركيا "ثمنا باهظا" لهذه الفعلة، بالقول إن قائمة شاملة من العقوبات ستسري على أنقرة في أول يناير 2016.

كان طيار روسي آخر من المقاتلة المستهدفة بنيران جماعات جهادية في سوريا قد أصيب، ونُشرت له صور ومقاطع فيديو قبل مقتله.

وبعد الواقعة، علّقت روسيا اتفاقا مع تركيا كانت تلغى بموجبه تأشيرات الدخول من الجانبين. كما أوقفت مشاريع مقاولات بقيمة مليارات الدولارات كانت قد فازت بها تركيا ضمن العمل لاستضافة نهائيات كأس العالم لكرة القدم في روسيا عام 2018.

عانت الشركات التركية كثيرا في تلك الفترة بعد أن فرض بوتين العقوبات فاضطر الرئيس التركي للاعتذار ستّ مرات كاملة بعد أن أوشكت صادرات بلاده من الفاكهة والخضروات على الانهيار، بينما أوقفت روسيا تدفقا سياحيا يقدّر بخمسة ملايين زائر إلى تركيا التي كانت تستفيد بمليارات الدولارات.

لكنّ اعتذارات أردوغان أعادت العلاقات مع روسيا إلى طريقها الصحيح في يونيو 2016. في البداية تحدّث أردوغان وبوتين هاتفيا في 8 أغسطس 2016، ثم التقيا وجها لوجه في سان بطرسبرغ.

بعدها اقتربت تركيا من المعسكر الروسي الإيراني في سوريا لتعود العلاقات العسكرية والسياسية أفضل ممّا كانت قبل فرض العقوبات.

لكن روسيا في المقابل لم ترفع الحظر على تأشيرات دخول الأتراك حتى الآن، ولا تزال أبوابها مغلقة في وجه العمّال والمقاولين الأتراك.

وفي مقابل حوافز استثمارية مميزة وانخفاض تكلفة الاستثمار فيها بنحو النصف تقريبا، حصلت تركيا على عقود في روسيا بقيمة 16 مليار دولار في خط أنابيب توركاك.

وفي النهاية اشترت تركيا نظام الدفاع الصاروخي الروسي أس- 400 بنحو أربعة مليارات دولار، مخاطرة بذلك بالتعرّض لعقوبات من الولايات المتحدة وصلت لحدّ استبعادها من برنامج الطائرة المقاتلة أف- 35.

وفي الوقت الحالي، يجري التفاوض على عقود لشراء الطائرة المقاتلة الروسية سوخوي 35 والجيل الأحدث من المقاتلة سوخوي 57.

إذا، حصل بوتين على كل ما يريده خلال اجتماع 22 أكتوبر في سوتشي، إذ قُبلت جميع الطلبات الروسية تقريبا.

وفي الواقع، أعلن وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في سوتشي وأمام أردوغان أن العملية العسكرية نبع السلام، التي قادتها تركيا في شمال سوريا قد انتهت.

وفي صباح اليوم التالي، أعلنت وزارة الدفاع التركية انتهاء العملية العسكرية، أي بعد ساعات من إعلان لافروف.

مكاسب كبرى لروسيا إذا في العلاقة مع تركيا منذ 2016، إذ باتت تتحكم في اتفاقات المياه المبرمة بين سوريا وتركيا منذ عام 2009. وتبقى في يد بوتين إمكانية إغلاق خطوط الغاز في حالة حدوث أيّ خلاف.

الشيء نفسه عاشته تركيا مع الإدارة الأميركية، التي هددت مرارا بفرض عقوبات مع كل أزمة من قبيل أزمة القس برانسون. وفرضت عقوبات على أصول للرئيس وعائلته ووزير الخزانة والمالية، ووزراء الدفاع والداخلية والطاقة.

وعلى طاولة مجلس الشيوخ الأميركي، هناك الآن مقترحات تشريعية مختلفة تشمل عقوبات ضد أفراد وجهات متورطة في قضية بنك خلق.

وحين هدد ترامب والكونغرس بفرض عقوبات على تركيا، توصل أردوغان إلى قناعة بقدرته على جلب هذه الإدارة إلى النقطة التي يريدها، رغم خطاب شديد اللهجة بعثه ترامب إلى أردوغان في التاسع من أكتوبر.

في ذلك الخطاب، هدد ترامب بتدمير الاقتصاد التركي إن لم تفعل تركيا المطلوب وتوقف عمليتها العسكرية في شمال سوريا. لكن اليوم، وبعد الاجتماع الذي جرى قبل أيام، تبدو الأشياء مختلفة بشكل كبير.

فحين يزور أردوغان واشنطن في 13 نوفمبر، فإن المتوقع أن يهدي ترامب صفقة لشراء نظام باتريوت الدفاعي من الولايات المتحدة.

لقد تفادى أردوغان بهذه السياسة الضغوط الأميركية والروسية وحصل على كل ما أراد في أنقرة وفي سوتشي.

لبنان للبنانيين والعراق للعراقيين

فاروق يوسف
كاتب عراقي

قال خامنئي إن على المحتجين في بغداد وهم أصحاب حقوق مشروعة من وجهة نظره، أن يطالبوا بحقوقهم ضمن الأطر القانونية.

أما خادمه المطيع حسن نصرالله فإنه هو الآخر ساند المحتجين في بيروت في مطالبهم المحقة غير أنه حذّر من الفوضى.

خروج تظاهرات مليونية مناوئة للنظام الطائفي في العراق ولبنان، شكّل بالنسبة للولي الفقيه وأتباعه ضربة تقع خارج الحسابات وتتعارض مع كل التقديرات

الأطر القانونية التي قصدها خامنئي ليست موجودة خارج النظام الطائفي، الذي خرج العراقيون من أجل إسقاطه. أما الفوضى التي حذّر منها نصرالله فإنها وليدة النظام القائم الذي يقوده حزب الله.

في الحالين فإن خامنئي وخادمه إنما يدافعان عن استقرار وثبات النظام السياسي القائم، الذي خرج اللبنانيون والعراقيون إلى الشوارع محتجين على استمراره، والذي لا يملك الحد الأدنى من الشرعية.

وكالعادة فقد ربط بطلا المقاومة والصمود الاحتجاجات الشعبية بالمؤامرة التي تستهدف مشروع المقاومة. "مقاومة من؟"

أليس من المعقول السؤال عن علاقة المقاومة بالفساد لكي تستقيم الأمور في محاولة الإجابة على السؤال السابق؟ فإذا كانت حكاية نصرالله وحزبه قد أقيمت على أساس حروب سابقة مع إسرائيل، صار على لبنان وشعبه أن يدفعا ثمنها إلى يوم القيامة، فإن حكاية الطبقة السياسية الفاسدة في العراق لا تستند إلا إلى الولاء لإيران ووليها الفقيه.

فهل صار على العراق وشعبه أن يدفعا ثمن ذلك الولاء؟

هناك اليوم مرجعية سياسية وحيدة في العراق، تتمثل بقاسم سليماني قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني.

لم تُصدم الطبقتان السياسيتان في لبنان والعراق بما جرى، بقدر ما كان الحدث صادما لإيران. هناك خطأ في مكان ما بالتأكيد. غير أن ذلك الخطأ لم يكن بذلك الحجم، الذي يسبّب انفجارا شعبيا لا يمكن السيطرة عليه. إذاً لا بد من ربط الاحتجاجات الشعبية بقوى معادية، هي التي وقفت وراء التحريض عليها، بل وموّلتها وأملت شعاراتها.

ما هو ضروري ومهمّ بالنسبة لإيران وقد ضربتها الشعارات المرفوعة في ساحات الاحتجاج بشكل مباشر، أن يتم تغييب الإرادة الوطنية لدى الشعبين. وهو مسعى عملت عليه من خلال تجذير الطائفية من خلال الانتقال بها من مستواها إلى مستواها اجتماعي سعيا وراء تحويلها إلى ثقافة.

وإذا ما كان الساسة الإيرانيون قد تحدثوا باطمئنان في أوقات سابقة عن أذرع إيران الممتدة من البحر المتوسط حتى البحر الأحمر، فإنهم كانوا على يقين من أن مشروعهم الطائفي قد ثبت ومدّ جذوره وأن صورة المنطقة لن تتغير إلا لصالحهم.

لذلك شكّل خروج تظاهرات مليونية مناوئة للنظام الطائفي في العراق ولبنان، بالنسبة للولي الفقيه وأتباعه من أمثال نصرالله، ضربة تقع خارج الحسابات وتتعارض مع كل التقديرات. وهو ما عالجه الإعلام الإيراني وإعلام المقاومة، من جهة تسليط الضوء على مسألة المندسين. ويُقصد بهم رافعو الشعارات التي تدعو إلى إسقاط النظام الطائفي وطيّ صفحته.

غير أن المفارقة تكمن في أن الاحتجاجات لا ترفع إلا تلك الشعارات. فهل تحوّل الشعبان العراقي واللبناني إلى مجموعة من المندسين من وجهة نظر الولي الفقيه وأتباعه؟

إيران الحريصة على استمرار الطبقة الفاسدة في الحكم، لا يمكن أن تنظر بعين الاحترام للشعبين اللبناني والعراقي. هي تعتبرهم، في حقيقة ما تخطط له، خدما لمشروعها، بل عبيدا في إقطاعياتها. وهي إذ تنظر بأمل وتفاؤل إلى حروبها ضد العالم، فإن لها جيوشا من العراقيين واللبنانيين تحارب بدلا منها.

وفجأة ذهبت تلك الأحلام أدراج الرياح كما يُقال. لقد اكتشف الإيرانيون أنهم كانوا على خطأ في كل ما اعتبروه واقعا. أحلامهم التي أنفقوا عليها المليارات ليست حقائق ثابتة وأن الشعب الذي اعتقدوا أنهم دجنوه لا يزال حيا يقاوم أحلامهم في الهيمنة عليه.

غير أن من الصعب عليهم أن يعترفوا بالحقيقة. سيسعون بكل الطرق إلى مقاومتها ولكنهم في النهاية سيرضخون. فالشباب الذين خرجوا من بيوتهم لن يعودوا إليها إلا بعد أن يكونوا مطمئنين إلى أنهم استعادوا وطنهم. لبنان للبنانيين والعراق للعراقيين.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk